

LE MILIEU BASRIEN ET LA FORMATION DE GAHIZ

Par

CHARLES PELLAT

للكاتب طه الجاهري

حين تلقيت هذا الكتاب تلقينته حفا به مشوقا اليه مقبلا عليه ، وقد بعث مقدمه في نفسى نوعا من اللشوة الطيبة ملأت جرائنها . ولم يكن ذلك ، بحسب ، لأن هذا الكتاب يعالج موضوعا من أكثر الموضوعات حاجة الى المدرس العميق والبحث الدائب ، وأنه — فوق هذا — من أحب الموضوعات الى وأمسها صلة بي وقد عشت في البصرة — خاصة — بعثلي وخيالي أنضر عهود حياتي ، وصحبت أبا عثمان الجاحظ فترة طوييلة متصلة ، صبة كريمة ملأت قلبي حبا له وشغفا به واكبارا لمزكه . وما أزال أشعر بالحنين اليه يلا قلبي ، وأحس بالحاجة الى مراجعة تلك الصبة بين وقت وآخر .

ليس لهذا وحده وقع مني هذا الكتاب ذلك الموضع ، وأشاع في نفسى تلك اللشوة ، وإنما يرجع الأمر فوق هذا الى ما أعرفه عن صاحبه من روح عليية ، وبصيرة أدبية ، ودعوى على العمل ، وتقصى لوسائل الدرس ، وحب أشربه لشيخنا الجاحظ ، ولهذا الموضوع الذى يعالجه فى كتابه هذا . ومن قبل ما ترجم الى الفرنسية كتاب البخلاء للجاحظ ، وكانت ترجمة هذا الكتاب الى احدى اللغات الاوربية أمنية عزيزة ما زالت تتردد فى ضمائر المستشرقين ، منذ شيخهم العلامة د نولدكه ، حتى أتبع لها أخيرا أن تتحقق ، حين اضطلع ببعضها الاستاذ د بلا ، وقامت هيئة الاونسكو بنشرها بين ما تنشره من الآثار الادبية العالمية الكبرى التى تعنى بنقلها وتعريف الكافة بها . ونرجو أن نعرض لهذه الترجمة فى فصل خاص .

وكذلك كان مما ترجمه الى الفرنسية من آثار الجاحظ ، رسالة الثابتة ، وأحسب أنه أخرج — أو هو بسايل أن يخرج — ترجمة كتلب التاج المنسوب له .

كما نشر من رسائل الجاحظ التي لم تنشر من قبل رسالته « في نبي التشيه » ،
وأحسب أنه يعد للنشر طائفة أخرى من الرسائل الجاحظية . وإلى جانب هذه
العناية البارزة المشكورة بنشر آثار إمامنا الكبير وترجمتها وتحقيقها ، نشر من قبل
بحثاً قيماً عن حياة أبي عثمان في بغداد وسامرا .

فهذا الأقبال على آثار الجاحظ والتوفر على درسها ونشرها وترجمتها قد أحاطه
بحو ينفع بروح الجاحظ ، وتنبأت له بذلك أسباب التبريز في مثل هذا الموضوع
الذي نبى عليه كتابه . ومن هنا كان الأمل كبيراً في أن يبلغ من درسه مبلغاً بعيداً .

ويبدو أن الأصل في موضوع الكتاب هو الشطر الأول من حياة الجاحظ :
تعرف وجوهها وتبين العوامل المسيطرة عليها والموجهة لها ، وهذا يعني درس
الحياة البصرية من جميع وجوهها ، إذ كانت هي التي كونت الجاحظ ، وهيات منه
هذه الشخصية التي نراها في كتبه ، وأتاحت منه للأدب العربي والعقل الإسلامي
هذا الطراز الفريد الرائع .

ومن هنا جاء بناء الكتاب على أنه وصف للحياة البصرية عامة ، لا حياة
الجاحظ فيها خاصة .

فالفصل الأول منه معقود للكلام عن تأسيس البصرة ونموها وموقعها ،
وعن أحيائها وأرباضها ، وعن جوها ومألة الماء فيها ، وعن الشعب البصري
وعناصره التي يتألف منها .

فإذا فرغ المؤلف من هذا الفصل جعل الفصل التالي له للجاحظ خاصة
فتحدث عن مولده وعن الأصل الذي ينتمي إليه ، وعن اسمه وكنيته ولقبه ،
وعن صورته وهيئته ، وعن طفولته وشبابه ، ثم عن تكوينه الديني والعقلي .

وإذا كان تكوين الجاحظ هذا إنما يرجع به إلى البصرة ، فقد عاد المؤلف
إلى هذه المدينة يتبع بيئاتها المختلفة ، معقد الفصول الأربعة التالية للكلام
عن هذه البيئات ، لكل فصل :

وبذلك أخذ يتحدث في إفاضة وإسهاب عن البيئة الديلية بدراساتها ووجوه نشاطها المختلفة ؛ ثم عن البيئة الأدبية بلغتها ونحوها وروايتها وشعرها ونثرها ، وسائر ما يندرج تحت ذلك ؛ ثم يحىء بعد ذلك ما يسميه بالبيئة الديلية السياسية ، فيتحدث عن الفرق التي تلتق في نشاطها الاعتبارات الديلية والاعتبارات السياسية ، من عثمانية وشيعة وزنادقة وخوارج وشعوية ؛ فإذا كان الفصل الأخير قد جعله دراسة للبيئة الاجتماعية في البصرة ، فهو يتحدث عن طبقاتها الاجتماعية وألوان الحياة الاقتصادية ، وعن صور الحياة الخاصة وحياة المجتمعات والأندية ، إلى غير ذلك مما يحلو هذه الناحية .

فهذا هو الهيكل العام للكتاب ، ومنه يبدو بجلاء أن المؤلف قصد إلى أن يؤدي صورة عامة للحياة البصرية في جميع نواحيها ووجوه نشاطها ، لا يريد أن يفادر منها شيئاً .

ثم هو في هذا كله يتبع منهجاً علمياً سديداً في التأليف والتصنيف وفي الترتيب والترتيب ، وفي العناية بالمراجع والمصادر .

ولكن الظاهرة الأولى في الكتاب هي — فيما نرى — الاتجاه إلى التقصى الشديد ، والمبالغة في تتبع الجزئيات ، والرغبة القوية في الإلمام بجميع ما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد .

ثم شيء آخر يتصل بهذه الظاهرة ، وهو الاستطراد ، كأن الجاحظ — وهو مشهور بالاستطراد ، مسترسل معه ، لا يذفع عنه نفسه — قد أعداه في ذلك ، فهو يأخذ في غير موضع مأخذه . ونرى صورة من ذلك في الفصل الذي جعله للكلام عن طفولة الجاحظ ، فروح الاستطراد التي سرت إليه — فيما يظهر — عن شيخنا أبي عثمان قد غلبته على أمره ، وتجاوزت به الحدود المضروبة على هذا الفصل ، إذ لا يكاد يعرض لطفولة الجاحظ حتى يستطرد به القول إلى الكلام عن المعلمين ، فيأخذ فيه ، ويمضى في شعبائه ، ويسترسل معه في مذاهب المختلفة ، وإذا بنا إزاء فصل عن التعليم والمعلمين عند العرب ، يذهب بالقارىء بعيداً عن الموضوع الذي بنى عليه الفصل ، وهو طفولة الجاحظ .

ومرجع ذلك — فيما يبدو — إلى تلك الظاهرة التي أشرنا إليها ،
وهي الاتجاه إلى التقصى ، ثم ما يتبع ذلك من التخلل إلى الأطراف المختلفة ،
ومد النظر هنا وهنا .

وكما يدفعه هذا الاتجاه إلى الاستطراد على الوجه الذي رأينا صورة منه ،
يدفعه كذلك إلى التخلل في التحقيق ، والتماس وسائله من كل ميل ، والحرص
على ذلك حرصاً بالغاً ، وذلك — ولا ريب — أمر من صميم الأسلوب العلمى .
ولكن المبالغة فيه قد تكون مبعثة على الزلل .

يحكى المؤلف عن ياقوت — فى سياق كلامه عن حياة الجاحظ فى صباه
وشبابه — ما رواه عن المرزبانى من أنه رأى وهو يبيع الخبز والسمك بسيحان ،
فلا يكتفى بما يدل عليه هذا النص من وقوف الجاحظ فى هذه الفترة من حياته
بالأسواق ، واحترافه هذا النوع من أنواع البيع . ولكنه يريد فوق هذا
أن يستخلص من هذا النص دلالة أخرى ، إذ يتوصل به إلى معرفة التاريخ الذى
كان الجاحظ يحترف فيه هذه الحرفة ، ويتخذ فيه مكانه ذلك فى «سيحان» .
وسيحان هذا اسم نهر فى البصرة ، واسم الحى الذى يقع فيه ذلك النهر ، فالجاحظ
أذن كان يحترف هذا النوع من البيع بعد حفر ذلك النهر . والذى جفزه هو يحيى
ابن خالد البرمكى ، يذكر ذلك الطبرى فى أحداثه سنة ١٨٠ فى ذكر عودة الرشيد
من الحجاز ومروره بالبصرة ، وقد نظر إذ ذاك فى هذا النهر ، «فاذا كان الجاحظ
يبيع السمك والخبز على شواطئ هذه القناة» ، فقد كان ذلك فيما بعد سنة ١٨٠ ،
وقد كان فى نحو العشرين من عمره على الأقل .

هذه هى النتيجة التى انتهى إليها المؤلف . وإنما يصح هذا الاستنتاج إذا صح
أن هذه السنة هى تاريخ حفر هذه القناة ، والنص الذى اعتمد عليه من كلام الطبرى
يبدو أنه لا يحمل هذه الدلالة . وهاهو ذا نص عبارة ابن جرير: «وفى (أى فى سنة ١٨٠)
صار الرشيد إلى البصرة منصرفه من مكة ، فقدمها فى المحرم منها ، فنزل المحدث
أياماً ، ثم تحول منها إلى قصر عيسى بن جعفر بالحرية ، ثم ركب فى نهر سيحان
الذى احتفزه يحيى بن خالد ، حتى نظر إليه ، وسكر نهر الابل ونهر معقل ،

حتى استحكم أمر سيحان ، . فما الذي يعين أن حفر نهر سيحان إنما كان سنة ١٨٠ ؟ إن كل ما يمكن أن يؤديه لنا هذا النص أن الذي أحفر نهر سيحان هو يحيى بن خالد البرمكي ، وأنه كان موجوداً سنة ١٨٠ ، لا أنه لم يكن موجوداً إلا منذ هذه السنة ، وأن الرشيد ركب فيه ونظر إليه ، ثم بدا له إجراء بعض تعديلات في توزيع المياه بالبصرة ، فأمر بتسكير نهر الأبله ونهر معقل ، حتى استحكم أمر سيحان . ولا شيء أكثر من ذلك يمكن أن يؤخذ من النص أو يعمل النص عليه . وقد ولي يحيى بن خالد الوزارة للرشيد عقب خلافته ، أي منذ ١٧٠ ، فهناك إذن عشر سنوات يمكن أن يكون حفر هذا النهر وقع خلالها .

ومن هذا القليل في تحميل النص ما لا يحتمل ما ذكره المؤلف في الكلام عن المسجدين (ص ٢٤٤) من أنهم كانوا من الطبقة البورجوازية ، استناداً إلى هذه الجملة من كلام الجاحظ في كتاب البخل : « جلس الثوري إلى حلقة المصلحين في المسجد ، فسمع رجلاً من مياسيرهم يقول . . . الخ . . . وليس في هذا — كما هو واضح — دليل على ما وصف به هؤلاء المسجدين من أنهم كانوا من الطبقة الموسرة التي تملك من الموارد ما يمكن لها من العيش بلا عمل .

والكنها الرغبة الجارفة عند المؤلف في الاستنتاج والهجوم عليه ، عما يجعله لا بطل الوقوف — أو هو لا يكاد يقف أحياناً — عند المقدمات ، فبرى في النص ما ليس فيه ، أو يجعله ما لا يحتمل . ولكن ذلك على كل حال ليس إلا جانباً واحداً لا يلبث أن يذهب في غمار الكثرة الكثيرة من فضائل تقصى الجزئيات وتلق النصوص ، وإخضاعها للاستنتاج .

وبعد ، فإن ما أخذ الكتاب مهما يكن أمرها ليست شيئاً كبير الخطر بالقياس إلى قيمته العلمية ، ومشاركته مشاركة قوية عظيمة الخطر حقاً في تجلية هذه المرحلة من مراحل تطور العقل الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وتلك البيئة التي تعتبر من أول البينات وأكبرها شأنًا في امداد التاريخ العلمي والادبي بأكبر مقوماته وأبرز أجزائه إلى جانب مشاركته المستبصرة بإبراز العوامل التي كان لها أثرها في تكوين شخصية أديب العربية الأكبر ، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

طه الحاصري

مكتبة
مورع
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع



اول

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

مكتبة
مورع
مورع

والطبع والحس والتفكير والظلال والضياء والظلمة
والنور والحر والبرد والرياح والسموات والأرض
والنمل والحيوانات والنباتات والسموات والأرض
والنمل والحيوانات والنباتات والسموات والأرض
والنمل والحيوانات والنباتات والسموات والأرض

وذلك هو الحق الذي لا ريب فيه
والله اعلم بالصواب